فى حجرة البك الناظر ...

« البك الناظر » هى كلمة الإجلال التى يجرى بها العرف على ألسنة الطلاب والموظفين والأساتذة فى مدارسنا طول العام ، وعلى ألسنة آباء التلاميذ وأولياء أمورهم فى الأسبوع الأول من العام الدراسى فحسب ...

وافتتحت المدارس أول الأسبوع الماضى وجلس البك الناظر فى كل مدرسة على كرسيه المحترم أمام مكتبه الموقر وتأهب للقاء طالبى الأذن عليه وقد استجمع أكثر ما يطيق من الجد حتى لينقلب هذا الجد فى كثير من الحالات عنفاً ، وأقصى ما يستطيع من الحزم حتى ليستحيل هذا الحزم شططاً ، ولا يسعك إلا أن تلتمس العذر لأكثرهم من فرط ما يتوسل المتوسلون ويلحف الملحفون ...

ودخلت حجرة البك الناظر فى مدرستنا وهو رجل طويل التجربة حازم عن أصالة تهز كريماً إذ تهزه ، ولكنك على طيبة قلبه مهما بذلت من جهد ومهما اصطنعت من حيلة لا تستطيع أن تزحزحه قيد شعرة عن رأى اقتنع به وبخاصة فيما يتصل بسلوك طلابه ...

واستأذن والد أحد التلاميذ وهو موظف فى أحد الدواوين وطرق الباب طرقة خفيفة ودخل يظهر التخشع والاحتشام وسلم وتلعثم ثم أخذ يتوسل إلى الناظر أن يقبل ابنه المفصول رحمة به ؛ وقطع عليه الناظر حديث توسله بقوله : مثلت هذا الدور أول العام الماضى وقلت هذا الكلام وقبلت ابنك يومها على مضض فما كاد يدخل المدرسة حتى عاد إلى رذالته واستهتاره وطيشه ، وكان هذا سبب رسوبه فكيف تعود إلى الرجاء ، وكيف يتسنى لى أن أقبله ؟

وقال الرجل : وما ذنبى وكيف تأخذنى بجريرة ابنى؟وتعجب البك الناظر وأوشك أن يغضب ،ثم قال لم أفصلك ولكنى فصلت ابنك ، وما ذنب المدرسة وذنب أبناء الناس حتى أضع بينهم تلميذاً كهذا يفسد مدرسة وحده ؟ وعاد الرجل إلى التوسل والتضرع والتخشع ، واستنفد عبارات الاسترحام من مثل قوله المسامح كريم ... المعروف لن يضيع عند الله ... اعمل معروف! وحياة أولادك ... وهكذا حتى استحال الرجاء إلى نوع غريب من التنطع ؛ وضاق صدر الناظر وضاق صدرى ؛ ولكنى والله قد أخذتنى الشفقة وأحسبنى لو كنت البك الناظر ما كنت إلا مفسد المدرسة بنصف هذا التوسل بل بثلثه ... ولكن ناظرنا لم يشأ أن يستجيب له وخرج الرجل وهو يكاد يبكى ...

وما كدت أرثى لحال الناظر مما يلاقى من ضيق حتى طرق الباب قادم آخر ودخل فإذا برجل يدانى الستين فيما يبدو لعينى، حسن الهندام بادى الوجاهة يتوكأ على عصا ولكنه يخطو فى نشاط وإن كان فى مشيته عرج ، وقال قبل أن يصل إلى المكتب : أعذرنى يا سعادة البك إذ أدخل بعصاى فساق مكسورة فى حادث سيارة . . وجلس وهو يتنفس فى عسر ويحاول أن يجد ريقاً فى فمه ليبتلعه فلا يكاد يجد إلا فى مشقة ؛ ولمحت فى عينيه الألم الممض وتعرفت فى وجهه حيرة ذى الكبرياء بين كبرياء نفسه وبين ما تفرضه ظروف الحياة ؛ واختلجت شفتا الرجل كأنما يجد عسراً فى إخراج الكلام ، ثم تنهد تنهدة طويلة ، وقال وإن كلامه ليتقطع بتقطع نفسه : أنا والد فلان وما جئت لأدافع عنه فابنى بطال ... بطال ... وإنما أردت أن أسألكم وأنتم أطباء الأرواح ماذا أصنع لعلاجه . لقد ضربته الآن حتى بكيت وبكى ، وليست لى حيلة فيه وهو ابن هذه المدرسة طيلة خمس سنوات . . وتوقف الرجل ومد يداً معروقة ناحلة شاحبة وهو يحك سبابتها بوسطاها إذ يشير بهما ، وبلع شيئا من ريقه فى عسر وتنهد يستجمع نفسه وقال أريد أن أقول شيئاً آخر وإن لم يكن فى الموضوع .. ليس لى ولد غير هذا ولكن لى بنات ستا ... وهذا موضع أملى وأنا رجل أودع الدنيا وخدمت الأمة مهندساً عشرات السنين ...

ونظرت فإذا الرجل يحبس دمعه جاهداً وإذا العرق يلمع فى جبينه وقد أزاح بيده طربوشه عنه وصار يدق بكفه على قبضة عصاه دقات ويتأوه فى صوت خافت ، وتدلت شفته السفلى فكشفت عن ثناياه الذهبية التى لامعت صفرتها صفرة خديه الذابلين الناثرين، والتفت إلى البك الناظر فإذا وجهه رثاء كله لحال الرجل حتى لقد ظننته قبل ابنه ؛ ولكنه أشار إلى وقال للرجل : هذا أستاذه فاسمع رأيه فيه ... وحرت والله ماذا أصنع وما أستطيع الكذب ... وفطن الرجل إلى حيرتى وإنه لذو فطنة وكياسة فقال أنا أعرف كل شىء وما جئت مدافعاً كما ذكرت وإنما عدمت الحيلة فأعينونى على أمرى . وكدت لعمر الله أبكى وأعود فأقول لو أننى البك الناظر لغفرت لهذا التلميذ ذنوبه الماضية